التّناص الدّيني في شعر الأمير عبد القادر الجزائري

أ/ نسيمــة لـوح
قسم اللّغـة العربيّـة وآدابـها
جامعـــة البليـــــدة2

الملخـــّص

يهدف هذا البحث الموسوم بالتّناص الدّيني عند الأمير عبد القادر، إلى إلقاء الضّوء على ظاهرة التّناص في الشّعر الجزائري، و قد اخترنا التّناص الدّيني نموذجا والّذي حاولنا أن نقف عليه عند شاعر عدّ طفرة في الشّعر الجزائري، ألا وهو" الأمير عبد القادر بن محي الدّين الجزائـــــــري "حيث جاء شعره ليفصل بين شعر القرون الوسطى وشعر التّجديد ، إذ حمل معه أولى بذور هذا التّجديد .

وقد وقفنا على قصائد كثيرة تجلّى فيها التّناص الدّيني و بخاصة القرآني منه وذلك راجع إلى علاقة الشّاعر الوطيدة بالقرآن الّذي حفظـه ووعاه في سنّ مبكّـــرة، وكذا نشأته في زاوية قرآنية في حضرة فقهـــــاء وعلماء زادا من ارتباطه بالقرآن الكريم فنهل من معينه العذب الّذي لا ينضب، فوجدناه يستحضر آيات من القرآن الكريم ويتفاعل معا ثمّ ينشرها في متن قصائده بأشكال مختلفة.

يعدّ الأمير عبد القادر نموذجا فريدا ،إذ نجد في ملامح شعره الشّخصية الوطنيّة المدافعة عن مكاسبها المتمثّلة في الإسلام والعروبة والوطن، وبالرّغم من أنّ العديد من الباحثين يصفون شعره بأنّه ينتمي إلى شعر القرون الوسطى خاصّة وأنّه جاء في مرحلة وصفت بالعقم جرّاء سياسة التّعتيم الّتي مارستها سلطات الاحتلال لطمس اللّغة العربيّة ،فإنّنا نرى عكس ذلك إذ يعدّ شعــره ـــــ خاصّة

في فترة مقارعته لجحافل المحتلّ الغاصب ـــــ من بواكير شعر المقاومة الجزائريّة ،و لو أنّه كتب لشعره الضّائع البقاء لكنّا وقفنا على درر في الشّعر الجزائري .

لقد ارتبط مصطلح التّناص عند نشأته بالنّثر وبالرّواية خاصة، لكن ذلك لا يعني أنّ الشّعر يخلو منه ، فالتّناص خاصيّة أسلوبيّة يتميّز بها الأديب وتكتمل بلاغته بهذه الخاصّية، خاصّة عندما يوفّق في اختيار ما يخدم نصّه. فما مفهوم التّناص ؟ وكيف استعمله الأمير عبد القادر؟

أ- مفهـــــوم التّنـــــاص:

التّناص مصطلح نقدي حديث، يعني تفاعل النّصوص فيما بينها ،أو بعبارة أخرى توظيف النّصوص اللاّحقة لبنيات نصوص أصليّة سابقة.(1)

أمّا التّناص كما حدّدته " جوليا كريستفا " : "بأنّه مهما كانت طبيعة المعنى في نصّ ما أو مهما كانت ظروفه كممارسة إشاريّة فإنّه يفترض وجود كتابات أخرى... وهذا يعني أنّ كلّ نـــــصّ يقع في البداية تحت سلطان كتابات أخرى تفرض عليه كونا أو عالما يعينه ." [2]

ويرى الدّكتور " عبد الملك مرتاض" أنّ التّناص تبادل التّأثير والعلاقات بين نصّ أدبي ما ونصوص أدبيّة أخرى .[3]

وليتمكّن القارئ من إدراك التّناص سواء في الرّواية أو في أيّ نص أدبيّ آخر عليه أن يكون قارئا جريئا[4] ، ملمّا بالتّراث والتّاريخ، ويملك ثقافة تمكّنه من الرّبط بين النّص الّذي بين يديه والنّص الأصلي الّذي وظّفه الأديب أو الكاتب .

و" الشاعر الفذّ هو من امتلك القدرة على هضم ما قرأ واستطاع أن يصهره في بوتقة الذّات، فالنصّ الشّعري على حدّ تعبير نزار قباني: هو عمليّة تجميع للمياه الجوفيّة ، كلّ ما قرأناه وحفظناه وسمعناه، والكتب الصّفراء والبيضاء، كلّها تدخل في مظهر الشّعر." [5].

ب- التّناص الدّيني في شعر الأمير عبد القادر :

إنّ أكثر أنواع التّناص استعمالا عند الأمير عبد القادر هو التّناص الدّيني وبخاصّة القرآن الكريم الّذي حفظه ووعاه في سنّ مبكّرة، وزادته نشأته في زاوية "القيطنة " تأثّرا، كما أنّه سليل الدّوحة النّبويّة، [6] فكلّ هذه العوامل تضافرت لتجعل التّناص القرآني واضح المعالم في شعر الأمير.

ويرى القدماء و المحدثون على السّواء أنّ الاستناد على الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة في تحليل ظاهرة من الظّواهر في نصّ بإمكانها أن تثري النّص بإيحاءات جمالية ودلالات معنويّة وفنّيّة.[7] وهذا ما نجده عند الأمير الّذي وفّق في اختيار النّصوص القرآنيّة الّتي تخدم نصّه الشّعري وتزيده قوّة وإيحاء، كما سنرى في النّماذج التّالية: يقول الأمير في وصف رجاله:

كم صابروا كم كابروا كم غادروا أعتى أعاديهم كعصف مؤكـــــــل[8]

إذ نرى الأمير قد وظّف التّشبيه القرآني الوارد في سورة الفيل : (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) .[9] ، في سياق الافتخار برجاله الأفذاذ ، وقد أثرى هذا التّناص الصّورة الفنيّة وزادها دلالة وإيحاء . و يقول في قصيدة أخرى :

وجّهت وجهي في الأمور جميعها لمحمّد غيث النّدى المسترسل [10]

وصدر البيت يتناصّ مع قوله تعالى: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ). [11] ويقول في مقام آخر :

وافتح لهم مولاي فتحـا بيّنـــــا واغفر وسامح يا إلهي عجـــــّل [12]

وصدر البيت يتناصّ مع قوله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا).[13] ويقول في قصيدة أخرى :

وقل لملوك الأرض أنتم وشأنكم فقسمتكم ضئزى وقسمتنا كثر [14]

وعجـــــــز البيت يحيلنـا إلى قولـــه تعالـى : (أَلَكُمُ الذَّكَـرُ وَلَه الْأُنْثَـى تِلْكَ إِذًا قِسْـمَـــةٌ ضِيـــزَى)[15]، وقد استطاع الأمير أن يوظّف هذا التّعبير القرآني الموحي في البيت الشّعري وهو يؤدّي مناسك الحجّ ليبيّن ما يلحق العبد عندما يستغني عن زخارف الدّنيا ويهرع إلى خالقه يلهج باسمه ويركن إلى حصنه، خاصّة إذا كان في مسجده الحرام. و يقول الأمير :

فذلك فضل الله يؤتيه من يشا وليس على ذي الفضل حصر ولا حجز [16]

وصدر البيت فيه تناصّ مع قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) . [17] ويقول في قصيدة هائية :

يا يوسف ردّ لي من قربكم نظر كردّه بقميص أنت مهديهـــــــــا [18]

فالأمير هنا يستحضر قصّة سيّدنا يوسف الّتي يرى بعض الباحثين " أنّها تحمل سحرا خاصّا للأديب العربي الّذي شغف بتوظيف النّص القرآنيّ، لأنّه يشكّل جزءا أساسيّا من المخزون الثّقافي الجمعي للقارئ العربـــي ". [19]، فالأميـــر يرجـــو أن يردّ نظـــره إليه بقربـــــه من صديقـــــه" يوسف بدر الدّين" كما ردّ الله البصر إلى سيّدنا يعقوب حين جيء بقميص يوسف عليهما السّلام، وهذا ما توحي به عبارة "كردّه بقميص". ويقول في قصيدة أخرى :

لذاك عروس الملك كانت خطيبتي كفجأة موسى بالنّبـــوّة في طُـوى [20]

وحلّ بكهـف لا يرام جنابـــــه فمن حلّ فيه مثل من حلّ في طُوى [21]

وفي البيتين تناصّ توحي به كلمة "طُوى" الّتي استعملها الأمير ، حيث شبّه الإمارة الّتي بويع بها بعد إثبات جدارته بفجأة موسى بالنّبوّة في طوى و هو الوادي الّذي حلّ به سيّدنا موسى عليه السّلام ،حيث قال تعالى: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى).[22]

و يقول في قصيدة فخريّة :

ولا هالني زحف الصّفوف وصوتها بيوم يشيب الطّفل فيه مع المرد [23]

وهذا الاستعمال يوحي لنا بقوله تعالى: (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا). [24]

والمقصود به في الآية الكريمة "يوم القيامة ،وإنّما تشيب الولدان من شدّة هوله وكربه ."[25]

إذ نجد الأمير يستعمل هذا التّصوير القرآني في وصف اشتداد الحرب وهول المعركة وشجاعته النّادرة الّتي جعلته يقتحمها دون خوف ،وقد أضاف إلى الطّفل الّذي يستحيل أن يشيب إلاّ في حالات مرضية نادرة تنعدم فيها صبغيات الشّعر، المرد الّذي لا ينبت له شعر أصلا، وقد جاءت الدّلالة قويّة معبّرة .

و يقول في مقام آخر :

مذ رحلتم أذبتم مهجتي ودموعي فائضات من كمد

في الصّبر ولم يفن الجوى ما أراه فانيّا حتّى الأبد

وذوى ما كان رطبا يانعا و وهى العظم ولم يبق الجلد [26]

و عجز البيت الأخير يجعلنا نقف على قصّة سيّدنا زكريّا عليه السّلام ،قال تعالى : (كهيعص ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا). [27]

وقد استعمل الأمير عبارة "وهي العظم " في سياق حديثه عن شوقه وحنينه إلى إخوته وعدم صبره على فراقهم .(28) وفي نفس سياق الشّوق و الحنين للأهل والأحبّة وهو في الأسر يقول :

وتكون يا سعد المساعد للذي – من هجر من يهواه – صار على شفا [29]

ونهاية العجز فيه تناصّ مع قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ

عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (30)

و يقول الأمير :

اسكن فؤادي وفز الآن في جسدي فقد وصلت بحزب الله أحبالا (31)

وقد وردت عبارة "حزب الله " في سورتي المائدة في قوله تعالى: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (32) ، والمجادلة في قوله تعالى :(لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . (33)

و يقول الأمير واصفا قرية دمّر – وهي من أجمل مصايف دمشق – (34) :

عجّ بي فديتك في أباطح دمّر ذات الرّياض الزّاهرات النّظر

ذات المياه الجاريات على الصّفا فأنّها من ماء نهر الكوثر (35)

وهذا الوصف البديع لرياض ومياه قرية دمّر ،جعل الأمير يشبّهها بمياه نهر الكوثر الّذي وعد الله تعالى به نبيّه الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم ،وهو نهر من أنهار الجنّة ،إذ قال تعالى : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) . (36) و يقول في قصيدة أخرى :

و ملنا عن الأوطان و الأهل جملة فلا قاصرات الطّرف تثني و لا القصر (37)

وفي البيت تناصّ توحي به عبارة قاصرات الطّرف والتي وردت في القرآن الكريم في ثلاث آيات وهي:

(و عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ) (38)

(وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) (39)

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) (40)

وقد وفّق الأمير في استعارة هذه العبارة التّي أراد من خلالها أنّ العبد عندما يقصد البقاع المقدّسة تاركا وراءه وطنه و أهله وأحبابه يبغي وجه خالقه، ولا يثنيه شيء من أمور الدّنيا عن بلوغ ذلك الوجد الرّوحي، وحتّى قاصرات الطّرف اللاّئي وعد اللّه بهنّ عباده المؤمنين في الجنّة لا تثنيه عن القرب من خالقه. ويقول الأمير:

الحمد لله تعظيمـــــا و إجـــلالا ما أقبل اليسر بعد العسر إقبـــــــالا [41]

ويحيلنا قوله ما أقبل اليسر بعد العسر إلى قوله تعالى:(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [42]

و نجد أنّ الأمير قد وفّق في هذا الاستعمال الّذي أراد من خلاله أن يبيّن عظمة اللّه سبحانه الّذي وعد عباده الصّابرين بمجيء اليسر بعد العسر ، و هذا ما حدث مع الأمير الّذي قضى في الأسر خمس سنوات بفرنسا قبل أن يفرج عنه ، و يتوجّه إلى "بروسة" بالدّولة العثمانية "تركيا".

و قال في ابنة عمّه :

ألا قل للتّي سلبـــــت فـؤادي و أبقتني أهـــيـــــم بكـــــــل وادي [43]

وتحيلنا عبارة أهيم بكلّ واد إلى قوله تعالى في سورة الشّعراء : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) . [44] و يقول في وصف أستاذه الشّيخ "محمد الفاسي" :

حريص على هدي الخلائق ، جاهـد رحيم بهم ، برّ خبير ، له القدر [45]

ويحيلنا قوله هذا إلى قوله تعالى في رسوله الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [46] ، فقد استعار الأمير هذه الصّفات لوصف أستاذه . و يقول في مقام آخر :

وباللّه أضحـــــى عزّنا و جمالنـــا بتقوى و علم و التّزوّد للأخرى [47]

و في البيت تأثّر بقوله تعالى في سورة الحجّ: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ).[48] و يقول الأمير :

مسكين ما ذاق طعم العشق منذ بدا ولا استفزّته من لقمان أرواح [49]

و" لقمان " ذكر في القرآن الكريم في قوله تعالى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [50]، ولقمان الحكيم أتاه الله الفقه والعقل والإصابة في القول من غير النّبوّة.[51] وقد نزلت باسمه هذه السّورة الكريمة، وعرف بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان يستخدم أعشابا نفاّذة الرّائحة يقرّبها من المغمى عليه فيفيق وينتعش،[52] وهذا ما تحيل إليه عبارة " ولا استفزّته من لقمان أرواح ".

ثمّ يأتي التّناص مع الحديث النّبوي الشّريف ولكن بصورة أقل منه من القرآن الكريم ، ذلك أنّ الحديث النّبوي الشرّيف يأتي في المرتبة الثّانية بعد القرآن الكريم من حيث فصاحة اللّفظ وبلاغة القول، فنجد الشّعراء والكتّاب يستحضرونه في نصوصهم بما يخدم أغراضهم ، ومن أمثلة التّناص الحديثي في شعر الأمير قوله :

بلاد لها فضل على كـلّ بلــدة سوى من يشدّ الزّائرون لها الحلسا [53]

عجبت لباغي السّير للجانب الّذي نقدّس ممّا لا يجـــــــدّ له السّيـر [54]

وتحيل عبارتي " يشدّ الزّائرون لها الحلسا " و" يجدّ له السّير " إلى الحديث النبّوي الشّريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى " [55]

ونجد الأمير يوظّف شخصية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في البنية المركزيّة للنّص الّتي تتفجّر منها بقيّة الأبيات كقوله:

يا سيّدي يا رسول الله يا سنـــدي و يا رجائي و يا حصني و يا مـــــددي [56]

أبونا رسول اللّه خير الـــورى طـرّا فمن في الورى يبغي يطاولنا قـدرا [57]

منازل من أهواه طفـــلا و يافـــعـا و كهلا إلى أن صرت بالشّيب في برد[58]

وقد استعمل الأمير في شعره الكثير من المفردات الدينيّة والكثير من أسماء الأماكن المقدّســـــــــــــة "كمكّة" و"طيبة" و"الركن اليماني" و"نجد" و"الرّقمتين"، وغيرها من الأماكن الّتي يرى فيها صورة الوطن الضّائع الّذي أبعد عنه وحُرم من العودة إليه مثل قولـــــــه:

فمكّة ذي خيـــر البـــلاد فديتـــها فما طاولتها الشّمس يوما و لا النّسر[59]

وقولـــــــــه:

بها كعبتان: كعبة طاف حولـــهـــا حجيج الملا بل ذاك عندهم الظّفـــــــر

و كعبة حجاّج الجناب الّذي سمـــا و جلّ فلا ركن لديه و لا حجـــــر[60]

وقولـــــــــه :

بطيبة طاب العيش ثمّ تمـرّرت حلاوته ، فالنّحس أربى على السّعـــــــد

أردّد طرفي بيـــن وادي عقيقهـــا و بين "قبـــــــاها" ثمّ ألوي إلى أحـــد[61]

كما استعمل أسماء الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم كـ"عمر بن الخطّاب" و "علي بن أبي طالب" و "أبو بكر الصّدّيق" و"عثمان بن عفّان" و"بلال بن رباح" و"حمزة بن عبد المطّلب" وغيرهم وهي أسماء موحيّة ،وقد اتّخذها الأمير رموزا إذ جاء رصدها وجها تجنيديّا لزرع الوعي بالمجد الغابر فاستحضار الأسماء المجيدة له أثر معنوي فاعل لأنّه يقرن التّابع باللاّحق ويعمل على الارتفاع بالخلف إلى درجة السّلف.[62]

ومن ذلك قوله :

وما كلّ سيف ذو الفقـــار بحـدّه و لا كلّ كـــرّار عليّا إذا كـــــــــرّوا [63]

وفي قصيد آخر يقول :

وما كلّ من يسمّى بشيخ كمثلـه و ما كلّ من يدّعي بعمرو إذا عمرو [64]

و المراد هنا عمر بن العاص و عمر بن الخطّاب، ويقول في قصيدة فخريّة:

وقد سرت فيهم سيـــرة عمريّــة وأسقيت ظاميها الهداية فارتــوى[65]

وتوحي كلمة عمريّة و هي نسبة إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه الّذي اشتهر بعدله بين النّاس.

وإذا كانت النّماذج السّالفة الذّكر متفرّقة في قصائد متنوّعة ، فإنّنا سنعرض نموذجا فريدا لنصّ مكثّف يظهر فيه إبداع الأمير وقدرته على استثمار آي القرآن الكريم في وصف تجربة حقيقية عاشها عندما كان في" بروسة " بتركيا التي آثر الاستقرار بها بعد فك أسره ، والتي تذكره مناظرها بمدينة تلمسان ــ عروس ملكه ــ لكّنه غادرها إلى" دمشق " لكثرة الزّلازل بها . إنّ معايشة الأمير لهول الزّلزال وتكرّره ، جعله يبدع هذا القصيد الذي يصف فيه هذه الظّاهرة الطّبيعيّة الرّهيبة ، والتي تفاعل مع أحداثها وجدانيّا ، فحاكاها بأهوال يوم القيامة الواردة في القرآن الكريم يقول الأمير في قصيدة الزّلزال [66]

يا صاح لو أنّك حضرت سماءنا وقت انشـــــــقاقها حين لا تتماسك

وشهدت أرضـا زلزلـــت زلزالـــــها ألقـــت ما فيــها والجبـال دكـادك

ونظرت أرضا بدلـــــت وسماءنا وبرزخـــــنـــا حللنـــا وكـــل هالـــك

وشهدت صعقتنا والإله قائـــــل الملك لي اليوم ما لي مشـــــــــــارك

ثم الأناقة والمهيمن يلقى مـــن آياتـــه ويقـــول أنـــت مبـــــارك

لشهدت شيئا لا يطاق شهوده وسمعـــــــــت ما لا منه يدرك دارك

وعلمت أنّ القوم ماتوا حقيقة فلذا أبـــــاح للهم حمـــاة المالـــك

إذ نجد الأمير هنا يستثمر ما ورد في بعض السّور لوصف أهوال الزّلزال الذي يأتي بغتة ، فيدمّر الدّور والقصور والأسواق ، ويحصد آلاف الأرواح تحت الردم ، فيخيّل لمن يعيش هذه التّجربة أنّها فعلا نهاية العالم ، وأنّ اللّه قد أذن بقيام

السّاعة. فنجده في البيت الأول يصف السّماء موظّفا الوصف القرآني الوارد في سورة الانشقاق لقوله تعالى:(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)[67]، وانشقاق السّماء من علامات يوم القيامة، ثمّ في البيت الثّاني يصوّر كيف تحرّكت الأرض فجأة حركة شديدة واضطربت حتّى تكسّر كلّ شيء عليها وألقت ما في جوفها فأخرجت دفائنها وطرحته عن ظهرها [68] وكيف دكّت الجبال فاستوت وصارت قاعا صفصفا [69] حتّى ظنّ أنّه هالك لا محالة وأنّ اللّه سيصيبهم بالصّعقة كعاد وثمود. وقد استثمر المعنى الوارد كذلك في سورة الزلزلة لقوله تعالى:(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) [70]وسورة الفجر في قوله تعالى:(كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [71] وسورة الانشقاق كذلك في قوله تعالى: (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) [72].كما يظهر توظيف الأمير المعنى الوارد في سورة الفرقان في البيت الرّابع، قال تعالى: (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) [73] وفي سورة الفجر في قوله تعالى:(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) [74]، " فيوم القيامة يأمر الرّب بكرسيه فيوضع على النّار فيستوي عليه ثمّ يقول : أنا الملك الدّيّان وعزّتي وجلالي لا يتجاوز اليوم ذو مظلمة ولو ضربة بيد " [75].

إنّ مثل هذا النّص الشّعري المكثّف ـ ونعني بالمكثّف أنّه جاء نفسا واحدا وكلّ كلمة فيه تحمل معان عدّة ــ والذي استثمر فيه الأمير أربع سور قرآنية في سبعة أبيات فقط لدليل على قدرته في توليد نصّ إبداعي متماسك.

وفي نهاية هذا البحث المتواضع، نخلص إلى نتيجة جوهريّة وهي أنّ الأمير قد أدرك ما يعطيه القرآن الكريم من حرّية في التّأمل الجمالي والكتابة، فاغترف من منهله العذب، ولا يفوتنا أن نشير إلى حضور التّناص التّراثي بقوّة عند الأمير بعد التّناص الدّيني .

في الأخير نقول إنّ شخصيّة الأمير عبد القادر المتشبّع بالقيم العربيّة الإسلاميّة الأصيلة الّتي انعكست في شعره ـــــ الّذي نتأسّف على ضياع معظمه ـــــ وأنّ هذا الشعر لا يزال يحتاج إلى دراسات جادّة تجعل القارئ الحديث يعيد النّظر في الكثير من التّصنيفات، وتجعل من أدبائنا الجزائريين يتصدّرون فنونا، كان لهم فيها قصب السّبق بسنوات كثيرة عمّن نعدّهم روّادا لها من المشارقة، وهنا لا أنكر دور "محمود سامي البارودي" في إحياء الشّعر لكن في مصر وليس في الجزائر.

ـ الهـوامـــــــــــــــــــش :

---

(1) ينظر تزفطان تودوروف وآخرون "في أصول الخطاب النقدي الجديد" – ط2 عيون المقالات ،الدّار البيضاء ،المغرب 1989 ،ص98 .

(2)Julia KRISTEVA . le texte du roman .mouton .paris 1970 .p12

(3) أ. سامية محصول "التناص إشكالية المصطلح والمفاهيم" مجلة دراسات أدبية .ع1 ،ماي 2008 جمادى الأولى 1429ه .الجزائر .ص72.

(4) د. أمين الزّاوي "ورشات الملتقى الدّولي الأوّل للرواية الجزائرية الواقع والآفاق" جامعة البليدة –2– أيام :(10 و11)ديسمبر .2013

(5) جمال مباركي "التناص و جمالياته في الشعر الجزائري المعاصر" :ص136 ـــ إصدار رابطة إبداع الثقافية ـــ دار هومة . د ط/ 2003 .

(6) ينظر شارل هنري شارشل "حياة الأمير عبد القادر" ترجمة أبو القاسم سعد الله ، الجزائر : ص 39 و 40 . الجزائر ـــ الشركة الوطنية للنشر

و التوزيع .ط 2/ 1982 . و ينظر كذلك "محمد بن الأمير عبد القادر" "تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر" .شرح و تعليق "ممدوح حقي" ج1 : ص923. لبنان .بيروت ــ دار اليقظة العربية . د ط/ 1964 .

(7) د . سعيد سلامي "التناص في الرواية الجزائرية" : ص 106 . الأردن . أربد ـــــ عالم الكتب الحديث . د ط/ 2010 .

(8) د. زكريا صيام "ديوان الأمير عبد القادر الجزائر" :ص279.الجزائر ـــــ ديوان المطبوعات الجامعية .دط/ دت .

(9) سورة الفيل آ 3و4و5

(10) د .زكريا صيام المرجع السابق ص281

(11) سورة الأنعام آ 80

(12) د.زكريا صيام المرجع السابق ص 280

(13) سورة الفتح آ1و2.

(14)د. زكريا صيام المرجع السابق ص202

(15) سورة النجم آ21 و 22.

(16)د. زكريا صيام "ديوان الأمير عبد القادر" ص 190

(17) سورة المائدة آ 54

(18) د.زكرياء صيام المرجع السابق ص 316

(19) ينظر جمال مباركي المرج السابق ص 173

(20) د.زكرياء صيام المرجع السابق ص 107

(21) د.زكرياء صيام المرجع السابق ص 101

(22) سورة طه آ 12

(23) د.زكرياء صيام المرجع السابق ص 145

(24) سورة المزمل آ 17.

(25)محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن" تحقيق : أحمد محمد شاكر . ج 23- ص 694 ـــــ مؤسسة الرسالة . ط1 – 1420ه – 2000م.

(26) د . زكريا صيام المرجع السابق : ص45 .

(27) سورة مريم آ4

(28) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص237

(29) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص238

(30) سورة آل عمران آ 103

(31) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص254

(32) سورة المائدة آ 56

(33) سورة المجادلة آ 22

(34) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص167

(35) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص168

(36) سورة الكوثر آ 1

(37) د. زكرياء صيام "ديوان الأمير عبد القادر" : ص 200

(38) سورة الصافات آ 48.

(39) سورة ص آ 52.

(40) سورة الرحمن آ 43 .

(41) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص251

(42) سورة الشرح آ5 و 6

(43) د. زكرياء صيام "ديوان الأمير عبد القادر" : ص 135

(44) سورة الشعراء آ224 و 225.

(45) د. زكرياء صيام "ديوان الأمير عبد القادر" : ص 189

(46) سورة التوبة آ128.

(47) د. زكرياء صيام "ديوان الأمير عبد القادر" : ص 163

(48) سورة الحج آ 197.

(49) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص128.

(50) سورة لقمان آ 12.

(51) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن" تحقيق : أحمد محمد شاكر . – ج 20 ص 1.34

(52) ينظر د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص128.

(53) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص219..

(54) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص195.

(55) محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي "صحيح البخاري" ــ تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر . ج 2 ص60 ـــــ دار طوق النجاة . ط و / 1422ه

(56) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص142.

(57) المرجع نفسه : ص163.

(58) المرجع نفسه : ص142.

(59) المرجع نفسه : ص194.

(60) المرجع نفسه :ص194.

(61) المرجع نفسه : ص142.

(62) ينظر سليمان عشيراتي "الأمير عبد القادر الشاعر" : ص163 . الجزائر ـــ دار الغرب للنشر و التوزيع .د ط/ 2002 .

(63) د. زكرياء صيام المرجع السابق : ص192.

(64) المرجع نفسه : ص193.

(65) المرجع نفسه : ص193.

(66) المرجع نفسه : ص250

(67) سورة الانشقاق الآية: 1و2

(68) ينظر أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثّعالبي (ت 875 ه) "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"ج 5 ص 567 تحقيق الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود .دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط1 ــ 1418ه.

(69) ينظر أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت542)"المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" ج 5 ص: 510 تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية بيروت .ط 1 ــ 1422ه .

(70) سورة الزلزلة الآية 1و2 .

(71) سورة الفجر الآية 21 و 22

(72) سورة الانشقاق الآية 3 و4

(73) سورة الفرقان الآية 26

(74) سورة الفجر الآية 14

(75) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت911ه) "الدّر المنثور" ج 8 ص :508. دار الفكر بيروت . دط ــ دت .